الظَّلُومُ الجَهُول

١٧ قال الله ـ عز وجل ـ فى حديثه القدسى :

« يَا آدَمُ ، إنِّى عَرَضْتُ الأمَانَةَ علَى السَّمَاوات وَالأرْضِ ، فَلَمْ تُطِقْهَا ، فَهَل أنتَ حَامِلها بِمَا فِيهَا ؟

قال آدم : ومَالِى فِيهَا ؟

قال تعالى : إنْ حملْتَهَا أُجِرْتَ ، وإنْ ضيَّعتَهَا عُذِّبْتَ .

فقال آدم : قَدْ حَملتُها بِمَا فيها .

فَلَمْ يَلْبثْ فى الجنة إلاَّ مَا بَيْن الصَّلاة الأُولى إلى العَصْر ، حتَّى أخرجَهُ الشَّيطانُ مِنْها »[1] .

يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢) ﴾ (الأحزاب)

---

(١) أورده المتقى الهندى فى كنز العمال (٦/ حديث ١٥١٤٢) وعزاه لأبى الشيخ من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس ، وأورده ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٥٢٢) من طريق سعيد ابن جبير عن ابن عباس، وساقه ، ثم قال : « وقد روى الضحاك عن ابن عباس قريبًا من هذا وفيه نظر وانقطاع بين الضحاك وبينه والله أعلم » .

ولفظه عن ابن عباس من طريق ابن جبير الذى أورده ابن كثير وعزاه لابن جرير الطبرى : «عرضت على آدم فقال : خذها بما فيها فإن أطعت غفرت لك ، وإن عصيت عذبتك . قال: قبلت فما كان إلا مقدار ما بين العصر إلى الليل من ذلك اليوم حتى أصاب الخطيئة » .

وأورد طريق الضحاك عن ابن عباس القرطبى فى تفسيره (٨/ ٥٥٢٢) وعزاه للترمذى الحكيم.

يحملنـها ، وحمـلها الإنسان هى أمانة الاختيار التى يتـرتب عليها التكليف من الله .

إن التكليف مـحـصور فى « افـعل » و « لا تفـعل » ، فإن شـئت فـعلت فى «افعل » ، وإنْ شئتَ لم تفعل فى « لا تفعل » ، وإنْ شئت العكس .

ومعنى ذلك أن الأمانـة فى هذا المعنى مقصورة على ما طـلبه الله من الإنسان وقت العرض ، لكنها لم تتعرض للأمانات التى توجد بيننا .

والأمانة كذلك هى ما يتعلق بذمـتك بحقٍّ غيرك ؛ لذلك فحين يعطى إنسان إنسانًا شيئًا يصير الآخذ مُؤْتمنًا ، فإن شاء أدى ، وإن شاء لم يُؤَدِّ .

لكن هناك أمـانات أخـرى لم يُعطـهـا إنسـانٌ لإنســان ، وإنما أعطاها ربُّ الإنسان لكل إنسان ، فالعلم الذى أعطاه الله للناس أمانة .

فهل الذى علَّمك علْمًا وأعطاه لك ، وبعـد ذلك قال لك : أدّه لى كمثل منْ يكون مأمونًا على مال ؟

نقـول للعالم : العلم لـيس من عندك حتى تعطـيه لغـيرك ، وبعـد ذلك يرده لك، ولكن الله يجازيك عليه ثوابًا ، وكذلك فى الحِلْم والشجاعة .

ولا تتضح هذه المسائل بين العبد والعبد إلا فى المال ، ولكن فى بقية الأشياء نقول لك : أنت أمينٌ عليها أمام خالقك ، وقد أمَّنك ربك على هذه الأشياء كى تؤديها إلى منْ لا يعلم .

فأمَّنك على قدرة ، وأمرك : أعْطِها لمن لا يقدر .

وأمَّنك على علم ، وأوضح لك : أعْطِه لمن لا عِلْم له .

إذن : فمن الذى أعطاك هذه الأمانة ؟ الله .

فليس ضروريًا أن تكون الأمانة من صاحبها الذى أعطاها لك لتردها إليه ، فالأمانة ما تصير مأمونًا عليه ممن خلق أو من مخلوق ، فأدِّها .

والأمانة بهذا المعنى أمرها واسع[1] ، فاستحقاق الله للتوحيد أمانة عندك ، أهليتُك للتكليف من الله حين كلَّفك أمانة عندك ، وأهليتُك فى المواهب المختلفة أمانة عندك .

فكل إنسان عنده موهبة هو أمين عليها ، ولا بُدَّ أن يُؤدِّيها ، وينقل آثارها لمن لا توجد عنده هذه الموهبة .

فالحق ـ سبحانه ـ أعطى هذا الإنسان قوة عضل ، وأعطى ذلك قوة فِكْر ، وأعطى ثالثًا قوة حلم ، وأعطى رابعًا علمًا .

كل هذه الأشياء أمانات أودعها الله ـ سبحانه ـ فى خلقه ليتكامل الخلق ، فحين يؤدى كل إنسان أمانته لكل إنسان يصبح كل إنسان عنده مواهب كل الآخرين.

---

(١) ذكر القرطبى فى تفسيره (٨/ ٥٥٢٢) من قول عبد الله بن عمرو بن العاص موقوفًا عليه : أول ما خلق الله تعالى من الإنسان فرجه وقال : هذه أمانة استودعتكها ، فلا تلبسها إلا بحق ، فإن حفظتها حفظتك ، فالفرج أمانة ، والأذن أمانة ، والعين أمانة ، واللسان أمانة ، والبطن أمانة ، واليد أمانة ، والرِّجل أمانة ، ولا إيمان لمن لا أمانة له .

يحملنـها ، وحمـلها الإنسان هى أمانة الاختيار التى يتـرتب عليها التكليف من الله .

إن التكليف مـحـصور فى « افـعل » و « لا تفـعل » ، فإن شـئت فـعلت فىُ «افعل » ، وإنْ شئتَ لم تفعل فى « لا تفعل » ، وإنْ شئت العكس .

ومعنى ذلك أن الأمانـة فى هذا المعنى مقصورة على ما طـلبه الله من الإنسان وقت العرض ، لكنها لم تتعرض للأمانات التى توجد بيننا .

والأمانة كذلك هى ما يتعلق بذمـتك بحقٍّ غيرك ؛ لذلك فحين يعطى إنسان إنسانًا شيئًا يصير الآخذ مُؤْتمَنًا ، فإن شاء أدى ، وإن شاء لم يُؤَدِّ .

لكن هناك أمـانات أخـرى لم يُعطـهـا إنسـانٌ لإنســان ، وإنما أعطاها ربُّ الإنسان لكل إنسان ، فالعلم الذى أعطاه الله للناس أمانة .

فهل الذى علَّمك علْمًا وأعطاه لك ، وبعـد ذلك قال لك : أدّه لى كمثل منْ يكون مأمونًا على مال ؟

نقـول للعالم : العلم لـيس من عندك حتى تعطـيه لغـيرك ، وبعـد ذلك يرده لك، ولكن الله يجازيك عليه ثوابًا ، وكذلك فى الحِلْم والشجاعة .

ولا تتضح هذه المسائل بين العبد والعبد إلا فى المال ، ولكن فى بقية الأشياء نقول لك : أنت أمينٌ عليها أمام خالقك ، وقد أمَّنك ربك على هذه الأشياء كى تؤديها إلى منْ لا يعلم .

فأمَّنك على قدرة ، وأمرك : أعْطِها لمن لا يقدر .

وأمَّنك على علم ، وأوضح لك : أعْطِه لمن لا عِلْم له .

إذن : فمن الذى أعطاك هذه الأمانة ؟ الله .

فليس ضروريًا أن تكون الأمانة من صاحبها الذى أعطاها لك لتردها إليه ، فالأمانة ما تصير مأمونًا عليه ممن خلق أو من مخلوق ، فأدِّها .

والأمانة بهذا المعنى أمرها واسع[1] ، فاستحقاق الله للتوحيد أمانة عندك ، أهليتُك للتكليف من الله حين كلَّفك أمانة عندك ، وأهليتُك فى المواهب المختلفة أمانة عندك .

فكل إنسان عنده موهبة هو أمين عليها ، ولا بُدَّ أن يُؤدِّيها ، وينقل آثارها لمن لا توجد عنده هذه الموهبة .

فالحق ـ سبحانه ـ أعطى هذا الإنسان قوة عضل ، وأعطى ذلك قوة فِكْر ، وأعطى ثالثًا قوة حلم ، وأعطى رابعًا علمًا .

كل هذه الأشياء أمانات أودعها الله ـ سبحانه ـ فى خلقه ليتكامل الخلق ، فحين يؤدى كل إنسان أمانته لكل إنسان يصبح كل إنسان عنده مواهب كل الآخرين.

---

(١) ذكر القرطبى فى تفسيره (٨/ ٥٥٢٢) من قول عبد الله بن عمرو بن العاص موقوفًا عليه : أول ما خلق الله تعالى من الإنسان فرجه وقال : هذه أمانة استودعتكها ، فلا تلبسها إلا بحق ، فإن حفظتها حفظتك ، فالفرج أمانة ، والأذن أمانة ، والعين أمانة ، واللسان أمانة ، والبطن أمانة ، واليد أمانة ، والرِّجل أمانة ، ولا إيمان لمن لا أمانة له .

إنها الأجناس كلها ساجدة[1] ، الشمس ساجدة ، والقمر ساجد ، والنجوم[2]، والجبال ، كل هذه الجمادات ساجدة ، وكذلك الشجر[3] والنبات ساجد لله ، والحيوان والدواب ساجدة لله ، وكثير من الناس سجود .

لكن فى مقابل هذا الكثير الساجد من البشر ، هناك كثير غير ساجد ، لذلك حَقَّ عليه العذاب ، ولو أن الإنسان قد أخذ منهج الله فنفَّذه لصار كبقية الأجناس ، لكن الإنسان اختلف ، وقال :

« أنا سوف آخذ اختيار تحمُّل الأمانة ؛ لأنى عالم وعاقل » فلو أخذ الإنسان منهج الله فى « افعل » و « لا تفعل » لانسجم الإنسان مع الوجود كله ، وحين

---

(١) عن أبى ذر ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « أتدرى أين تذهب هذه الشمس ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : « فإنها تذهب فتسجد تحت العرش ، ثم تستأمر فيوشك أن يقال لها ارجعى من حيث جئت » أخرجه البخارى فى صحيحه (٣١٩٩) وكذا أحمد فى مسنده (٥/ ١٦٥) .

(٢) قال أبو العالية : ما فى السماء نجم ولا شمس ولا قمر إلا يقع لله ساجداً حين يغيب ، ثم لا ينصرف حتى يؤذن له ، فيأخذ ذات اليمين حتى يرجع إلى مطلعه . أورده ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٢١١) .

(٣) عن ابن عباس ﷺ قال : جاء رجل فقال : يا رسول الله إنى رأيتنى الليلة وأنا نائم كأنى أصلى خلف شجرة ، فسجدتُ ، فسجدتْ الشجرة لسجودى ، فسمعتها وهى تقول : اللهم اكتب لى بها عندك أجرًا ، وضَعْ عنِّى بها وِزرًا ، واجعلها لى عندك ذُخْرًا ، وتقبَّلها منى كما تقبلتها من عبدك داود . قال ابن عباس : فقرأ رسول الله ﷺ سجدة ثم سجد فسمعته وهو يقول مثل ما أخبره الرجل عن قول الشجرة . أخرجه الترمذى فى سننه (٥٧٩ ، ٣٤٢٤) ، وابن ماجة فى سننه (١٠٥٣) ، وابن حبان (٦٩١ ـ موارد الظمآن) .

ينسجم الإنسان مع الوجود كله فلن تأتى منه مخالفة أبدًا ، كما لا تأتى مخالفة فى الوجود من غير الإنسان .

إذن : فالانقسام جاء عند مَنْ ؟

لقد جاء الانقسام عند الإنسان ، لماذا ؟

لأن الله خلق الإنسان مختارًا .

ألم يَكُنْ من الممكن أن يخلق الله الإنسان مُسخَّرًا كبقية الكائنات ؟

أليس التسخير دليلاً على قدرة المسخِّر ، وأن شيئًا من خلقه لن يخرج من قدرته ؟

هذا صحيح ، لكن الحق ـ سبحانه ـ كما أراد أن يثبت القدرة والقهر بالتسخير ، أراد أن يثبت المحبوبية بالاختيار ، فمن كان مختارًا أن يؤمن أو يعصى ثم اختار أن يؤمن ، فهذا الاختيار إنما يثبت به الإنسان المحبوبية لله ، فتطيع حبًا فى الله وطاعة لأوامره .

وضربنا لذلك مثلاً ، ولله المثل الأعلى ، وقلنا :

لو أن إنسانًا عنده عبدان :

أحدهما : مربوط بحبل فجذبه من الحبل وقال له : تعال ، هل يستطيع أن يعصى ؟ لا يستطيع ؛ لأنه مُقيَّد ومربوط .

الثانى : طليق ، ومع ذلك حينما يناديه سيده يُسرع إلى طاعته وتلبية أمره ،

إنها الأجناس كلها ساجدة[1] ، الشمس ساجدة ، والقمر ساجد ، والنجوم[2]، والجبال ، كل هذه الجمادات ساجدة ، وكذلك الشجر[3] والنبات ساجد لله ، والحيوان والدواب ساجدة لله ، وكثير من الناس سجود .

لكن فى مقابل هذا الكثير الساجد من البشر ، هناك كثير غير ساجد ، لذلك حَقَّ عليه العذاب ، ولو أن الإنسان قد أخذ منهج الله فنفَّذه لصار كبقية الأجناس ، لكن الإنسان اختلف ، وقال :

« أنا سوف آخذ اختيار تحمُّل الأمانة ؛ لأنى عالم وعاقل » فلو أخذ الإنسان منهج الله فى « افعل » و « لا تفعل » لانسجم الإنسان مع الوجود كله ، وحين

---

(١) عن أبى ذر ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « أتدرى أين تذهب هذه الشمس ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : « فإنها تذهب فتسجد تحت العرش ، ثم تستأمر فيوشك أن يقال لها ارجعى من حيث جئت » أخرجه البخارى فى صحيحه (٣١٩٩) وكذا أحمد فى مسنده (٥/ ١٦٥) .

(٢) قال أبو العالية : ما فى السماء نجم ولا شمس ولا قمر إلا يقع لله ساجدًا حين يغيب ، ثم لا ينصرف حتى يؤذن له ، فيأخذ ذات اليمين حتى يرجع إلى مطلعه . أورده ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٢١١) .

(٣) عن ابن عباس ﷺ قال : جاء رجل فقال : يا رسول الله إنى رأيتنى الليلة وأنا نائم كأنى أصلى خلف شجرة ، فسجدتُ ، فسجدتْ الشجرة لسجودى ، فسمعتها وهى تقول : اللهم اكتب لى بها عندك أجرًا ، وضَعْ عنِّى بها وِزرًا ، واجعلها لى عندك ذُخْرًا ، وتقبَّلها منى كما تقبلتها من عبدك داود . قال ابن عباس : فقرأ رسول الله ﷺ سجدة ثم سجد فسمعته وهو يقول مثل ما أخبره الرجل عن قول الشجرة . أخرجه الترمذى فى سننه (٥٧٩ ، ٣٤٢٤) ، وابن ماجة فى سننه (١٠٥٣) ، وابن حبان (٦٩١ ـ موارد الظمآن) .

ينسجم الإنسان مع الوجود كله فلن تأتى منه مخالفة أبداً ، كما لا تأتى مخالفة فى الوجود من غير الإنسان .

إذن : فالانقسام جاء عند مَنْ ؟

لقد جاء الانقسام عند الإنسان ، لماذا ؟

لأن الله خلق الإنسان مختاراً .

ألم يَكُنْ من الممكن أن يخلق الله الإنسان مُسخَّراً كبقية الكائنات ؟

أليس التسخير دليلاً على قدرة المسخَّر ، وأن شيئًا من خلقه لن يخرج من قدرته ؟

هذا صحيح ، لكن الحق ـ سبحانه ـ كما أراد أن يثبت القدرة والقهر بالتسخير ، أراد أن يثبت المحبوبية بالاختيار ، فمن كان مختاراً أن يؤمن أو يعصى ثم اختار أن يؤمن ، فهذا الاختيار إنما يثبت به الإنسان المحبوبية لله ، فتطيع حبًا فى الله وطاعة لأوامره .

وضربنا لذلك مثلاً ، ولله المثل الأعلى ، وقلنا :

لو أن إنسانًا عنده عبدان :

أحدهما : مربوط بحبل فجذبه من الحبل وقال له : تعال ، هل يستطيع أن يعصى ؟ لا يستطيع ؛ لأنه مُقيَّد ومربوط .

الثانى : طليق ، ومع ذلك حينما يناديه سيده يُسرع إلى طاعته وتلبية أمره ،

إنه من الحمْق أن يصنع صانعٌ صَنْعة ما ، ثم ينسى أن يضع لها قانون الصيانة، والإنسان فى حدود صناعته لا ينسى ذلك ، فما بالنا بالحق ـ سبحانه ـ بطلاقة قدرته ؟

إن الخالق ـ سبحانه ـ قد صنع الإنسان ، ووضع الحق ـ سبحانه ـ قانون صيانة صَنْعته فى الإنسان فقال ـ جَلَّ وعلا : افعل كذا ، ولاتفعل كذا .

فمَنْ أراد أن يعتصم بالحبل المتين فلا يأتى له نزغ[1] شيطان أو كيد عدو ، ولا هوى شيطان ، فليعتصم بمنهج الله ، لأن الله هو الذى خلقه ، وهو الذى وضع منهجه كقانون لصيانة صنعته ، وهو القانون الموجز فى « افعل » و « ولا تفعل » .

---

(١) النزغ : أن تنزغ بين قوم فتحمل بعضهم على بعض بفساد بينهم .

والنزغ : الكلام الذى يُغرى بين الناس . نزغ الشيطان : وساوسه ونَخْسه فى القلب بما يُسَوِّل للإنسان من المعاصى . (لسان العرب ـ مادة : نزغ) وقد جاء معنى التحريش بين الناس وإيقاع العداوة بينهم فى حديث يوسف عليه السلام مع أبيه : ﴿ **وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي .. ﴿١٠٠﴾** ﴾ (يوسف)

ولذلك وجّه الحق سبحانه المؤمنين إلى الاستعاذة بالله من نزغ الشيطان . وذلك فى آيتين :

﴿ **وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾** ﴾ (الأعراف)

﴿ **وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾** ﴾ (فصلت)

وكلاهما فى العفو عن الناس والتجاوز عن إساءاتهم .

ومن حكمة الخالق ـ سبحانه ـ أنْ مَيَّز الإنسان على سائر الأجناس ، مَيَّزه بالعقل ، ومهمة العقل أن يختار بين البديلات ، أما إذا كان هناك أمر ليس له بديل ، فليس للعقل عمل فيه .

إذن : فالعقل لا عمل له إلا الاختيار بين البديلات ، وإذا أراد العقل أن يختار بين البديلات ألا نضمن له حرية الاختيار ، أم نُقيِّد حرية الاختيار لديه ؟

إنك إنْ قيَّدتَ حرية الاختيار بالإكراه فقد أخذت النعمة التى أعطيتها له ، وجعلته مقهوراً مُسخّراً مُكْرهاً ، ولذلك فالمكْره لا يكون له حكم على الأشياء، بل هو مُجْبر ومُسَخَّر .

وما دُمْتَ تقول : إن العقل هو الذى يختار بين البديلات ، فلا بُدَّ أن يكون حَقُّ الاختيار موجوداً ، فإن كان فى الإنسان عطب[1] كأن يكون مجنونًا ، فلا اختيار له ، وإن كان العقل موجوداً لكنه لم ينضج بعد[2] نقول أيضاً : لا اختيار .

إذن : فلابد أن يكون العقل موجوداً وناضجاً للاختيار بين البديلات ،

---

(١) العطب : أصله فى اللغة الهلاك . وعطب الفرس والبعير : انكسارهما أو هلاكهما ، وقد يعبر به عن آفة تعتريه ، تمنعه عن السير . فيُنحَر . والعطب : الفساد (راجع لسان العرب ـ مادة : عطب).

(٢) أى : الذى لم يبلغ الحلم ، أى كل من بلغ سِنَّ الحلم وجرى عليه حكم الرجال ، احتلم أو لم يحتلم . وهو مناط التكاليف .

ومن حديث رسول الله ﷺ : « رفع القلم عن ثلاث : عن النائم حتى يستيقظ ، وعن المجنون حتى يفيق ، وعن الصبى حتى يحتلم » .

إنه من الحمْق أن يصنع صانعٌ صَنْعة ما ، ثم ينسى أن يضع لها قانون الصيانة، والإنسان فى حدود صناعته لا ينسى ذلك ، فما بالنا بالحق ـ سبحانه ـ بطلاقة قدرته ؟

إن الخالق ـ سبحانه ـ قد صنع الإنسان ، ووضع الحق ـ سبحانه ـ قانون صيانة صَنْعته فى الإنسان فقال ـ جَلَّ وعلا : افعل كذا ، ولاتفعل كذا .

فمَنْ أراد أن يعتصم بالحبل المتين فلا يأتى له نزغ[1] شيطان أو كيد عدو ، ولا هوى شيطان ، فليعتصم بمنهج الله ، لأن الله هو الذى خلقه ، وهو الذى وضع منهجه كقانون لصيانة صنعته ، وهو القانون الموجز فى « افعل » و « ولا تفعل » .

---

(١) النزغ : أن تنزغ بين قوم فتحمل بعضهم على بعض بفساد بينهم .

والنزغ : الكلام الذى يُغرى بين الناس . نزغ الشيطان : وساوسه ونَخْسه فى القلب بما يُسَوِّل للإنسان من المعاصى . (لسان العرب ـ مادة : نزغ) وقد جاء معنى التحريش بين الناس وإيقاع العداوة بينهم فى حديث يوسف عليه السلام مع أبيه : ﴿ **وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي .. ﴿١٠٠﴾** ﴾ (يوسف)

ولذلك وجّه الحق سبحانه المؤمنين إلى الاستعاذة بالله من نزغ الشيطان . وذلك فى آيتين :

﴿ **وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾** ﴾ (الأعراف)

﴿ **وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾** ﴾ (فصلت)

وكلاهما فى العفو عن الناس والتجاوز عن إساءاتهم .

ومن حكمة الخالق ـ سبحانه ـ أنْ مَيَّز الإنسان على سائر الأجناس ، مَيَّزه بالعقل ، ومهمة العقل أن يختار بين البديلات ، أما إذا كان هناك أمر ليس له بديل ، فليس للعقل عمل فيه .

إذن : فالعقل لا عمل له إلا الاختيار بين البديلات ، وإذا أراد العقل أن يختار بين البديلات ألا نضمن له حرية الاختيار ، أم نُقيِّد حرية الاختيار لديه ؟

إنك إنْ قيَّدتَ حرية الاختيار بالإكراه فقد أخذت النعمة التى أعطيتها له ، وجعلته مقهوراً مُسخّراً مُكْرهاً ، ولذلك فالمكْره لا يكون له حكم على الأشياء، بل هو مُجْبر ومُسَخَّر .

وما دُمْتَ تقول : إن العقل هو الذى يختار بين البديلات ، فلا بُدَّ أن يكون حَقُّ الاختيار موجوداً ، فإن كان فى الإنسان عطب[1] كأن يكون مجنونًا ، فلا اختيار له ، وإن كان العقل موجوداً لكنه لم ينضج بعد[2] نقول أيضاً : لا اختيار .

إذن : فلابد أن يكون العقل موجوداً وناضجاً للاختيار بين البديلات ،

---

(١) العطب : أصله فى اللغة الهلاك . وعطب الفرس والبعير : انكسارهما أو هلاكهما ، وقد يعبر به عن آفة تعتريه ، تمنعه عن السير . فيُنحْر . والعطب : الفساد (راجع لسان العرب ـ مادة : عطب).

(٢) أى : الذى لم يبلغ الحلم ، أى كل من بلغ سِنَّ الحلم وجرى عليه حكم الرجال ، احتلم أو لم يحتلم . وهو مناط التكاليف .

ومن حديث رسول الله ﷺ : « رفع القلم عن ثلاث : عن النائم حتى يستيقظ ، وعن المجنون حتى يفيق ، وعن الصبى حتى يحتلم » .

وكل ما دون الإنسان أعلن عدم تحمُّل الأمانة وقَبِل التسخير ، أما الإنسان فأعلن قبول الأمانة وأنه سيؤديها .

ولذلك وصفه القرآن الكريم بقوله :

﴿ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢) ﴾ (الأحزاب)

ظلوماً : لنفسه ؛ لأنه حمّل نفسه شيئاً ليس فى يده .

جهولاً : لأنه قاس وقت التحمُّل ، ولم يذكر وقت الأداء ، فلم يضع فى الاعتبار ما سوف تفعل به الأغيار .

ونحن نرى أن ما دون الإنسان من طائر أو حيوان لا يفسد شيئاً ؛ لأن غريزته تقوده ، فلا نجد حيواناً يأكل فوق طاقته ، لكننا نجد إنساناً يصيب نفسه بالتخمة[1] .

ولا نجد حماراً يقفز فوق قناة من الماء لا يقدر عليها ، بل نراه وهو يتراجع عنها ، ولكننا نجد إنساناً يُشمِّر عن ساعديه ، ليقفز فوق قناة مياه ، فيقع فيها .

فمَنْ أعطاه الله ـ سبحانه ـ البدائل هو الذى يُفسد الاختيار ، ما دام لا يحرس الاختيار بالإيمان ، وأن يختار فى ضوء منهج الله ـ تعالى .

إذن : فنحن بأهوائنا التى تسيطر على غرائزنا نُوقع أنفسنا فيما يضُرنا ، مالم نحرس أنفسنا بمنهج الله ـ سبحانه وتعالى ـ فما دُمْت قد حملتَ الأمانة فعليك

(١) التخمة : الذى يصيب الإنسان من الطعام إذا استوخمه . أى : استثقله . وقد تطلق التخمة على كثرة الطعام والمبالغة فى الأكل والشرب حتى يثقل على الجسم هضم الطعام ، فيصاب الإنسان بالوخم والثقل وعدم القدرة على الحركة . (اللسان ـ مادة : وضم) .

أنْ تُؤدِّيها ، وإلا كنت خائناً لعهد الله ، والأمانة هى ما استُؤْمِنْت عليه ، وأول شئ استُؤمنت عليه هو عهد الإيمان بالله ، فأنت آمنتَ بالله ، وما دُمْتَ آمنتَ به فعليك أن تنفذ أمره ، وأن تلتزم بمنهجه .

والحق ـ سبحانه ـ ينادى عباده المؤمنين فيقول : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا**(١) **أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴿٢٧﴾ ﴾ (الأنفال) ، فإذا كان الله يقول لنا : ﴿ **لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ .. ﴿٢٧﴾** ﴾ (الأنفال)

فعلينا أن نلتزم ؛ لأن التشريع وصلنا من الله بواسطة الرسول ، ومَنْ يطع الرسول فقد أطاع الله ؛ لأن الله لم يخاطبنا مباشرة ، بل خاطب رسولاً اصطفاه(٢) مَنْ خلقه ، وأيَّده بمعجزة ، وكلٌّ بلاغ وصلنا إنما كان بواسطة الرسول .

---

(١) خانه يخونه : غدر به . وخان الحق : نقصه . وخان العهد : لم يَفِ به ، فهو خائن . وخان الأمانة : لم يؤدِّها كاملة . وخوَّان : صيغة مبالغة . قال تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾** ﴾ (النساء) . واختانه يختانه : خانه وبالغ فى خيانته أو تعوَّد عليها وكررها ، فزيادة المبْنى تدل على زيادة المعنى . قال تعالى : ﴿ **وَلا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ .. ﴿١٠٧﴾** ﴾ (النساء) أى : تعودوا على الخيانة مراراً ، يخون بعضهم بعضاً فكأنهم يخونون أنفسهم ، ومن خان الناس فقد خان نفسه وأوقعها فى العذاب .

(٢) استصفى الشىء واصطفاه : اختاره . والاصطفاء : الاختيار .

واصطفاه : اختاره وآثره وفضّله . قال تعالى : ﴿ **يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾** ﴾ (آل عمران) اختارك وفضَّلك . وقال تعالى : ﴿ **اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ .. ﴿٧٥﴾** ﴾ (الحج)

وكل ما دون الإنسان أعلن عدم تحمُّل الأمانة وقَبِل التسخير ، أما الإنسان فأعلن قبول الأمانة وأنه سيؤديها .

ولذلك وصفه القرآن الكريم بقوله :

﴿ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢) ﴾ (الأحزاب)

ظلوماً : لنفسه ؛ لأنه حمّل نفسه شيئاً ليس فى يده .

جهولاً : لأنه قاس وقت التحمُّل ، ولم يذكر وقت الأداء ، فلم يضع فى الاعتبار ما سوف تفعل به الأغيار .

ونحن نرى أن ما دون الإنسان من طائر أو حيوان لا يفسد شيئاً ؛ لأن غريزته تقوده ، فلا نجد حيواناً يأكل فوق طاقته ، لكننا نجد إنساناً يصيب نفسه بالتخمة[1] .

ولا نجد حماراً يقفز فوق قناة من الماء لا يقدر عليها ، بل نراه وهو يتراجع عنها ، ولكننا نجد إنساناً يُشمِّر عن ساعديه ، ليقفز فوق قناة مياه ، فيقع فيها .

فمَنْ أعطاه الله ـ سبحانه ـ البدائل هو الذى يُفسد الاختيار ، ما دام لا يحرس الاختيار بالإيمان ، وأن يختار فى ضوء منهج الله ـ تعالى .

إذن : فنحن بأهوائنا التى تسيطر على غرائزنا نُوقع أنفسنا فيما يضُرنا ، مالم نحرس أنفسنا بمنهج الله ـ سبحانه وتعالى ـ فما دُمْت قد حملتَ الأمانة فعليك

(١) التخمة : الذى يصيب الإنسان من الطعام إذا استوخمه . أى : استثقله . وقد تطلق التخمة على كثرة الطعام والمبالغة فى الأكل والشرب حتى يثقل على الجسم هضم الطعام ، فيصاب الإنسان بالوخم والثقل وعدم القدرة على الحركة . (اللسان ـ مادة : وضم) .

أنْ تُؤدِّيها ، وإلا كنت خائناً لعهد الله ، والأمانة هى ما استُؤْمِنْت عليه ، وأول شئ استُؤمنت عليه هو عهد الإيمان بالله ، فأنت آمنتَ بالله ، وما دُمْتَ آمنتَ به فعليك أن تنفذ أمره ، وأن تلتزم بمنهجه .

والحق ـ سبحانه ـ ينادى عباده المؤمنين فيقول : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا**(١) **أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴿٢٧﴾ ﴾ (الأنفال)

فإذا كان الله يقول لنا : ﴿ **لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ .. ﴿٢٧﴾** ﴾ (الأنفال)

فعلينا أن نلتزم ؛ لأن التشريع وصلنا من الله بواسطة الرسول ، ومَنْ يطع الرسول فقد أطاع الله ؛ لأن الله لم يخاطبنا مباشرة ، بل خاطب رسولاً اصطفاه(٢) مَنْ خلقه ، وأيَّده بمعجزة ، وكلُّ بلاغ وصلنا إنما كان بواسطة الرسول .

---

(١) خانه يخونه : غدر به . وخان الحق : نقصه . وخان العهد : لم يَفِ به ، فهو خائن . وخان الأمانة : لم يؤدِّها كاملة . وخوَّان : صيغة مبالغة . قال تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا** ﴿١٠٧﴾ ﴾ (النساء) . واختانه يختانه : خانه وبالغ فى خيانته أو تعوَّد عليها وكررها ، فزيادة المبنى تدل على زيادة المعنى . قال تعالى : ﴿ **وَلا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ .. ﴿١٠٧﴾** ﴾ (النساء) أى : تعودوا على الخيانة مراراً ، يخون بعضهم بعضاً فكأنهم يخونون أنفسهم ، ومن خان الناس فقد خان نفسه وأوقعها فى العذاب .

(٢) استصفى الشىء واصطفاه : اختاره . والاصطفاء : الاختيار .

واصطفاه : اختاره وآثره وفضّله . قال تعالى : ﴿ **يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ** ﴿٤٢﴾ ﴾ (آل عمران) اختارك وفضَّلك . وقال تعالى : ﴿ **اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ .. ﴿٧٥﴾** ﴾ (الحج)

بهمام ؛ لأن زياداً كان يأخذ بالظن[1] ، لكن الله ألهم هماماً كلمة ، ظلت دستوراً يطبق .

واستدعى زيادٌ همّاماً .

قال زياد : بلغنى أنك هجوتنى[2] .

قال همام : كلا ، أصلحك الله ، ما فعلت ولا أنت لذلك بأهل .

فقال زياد : إن هذا الرجل ـ وأخرج الرجل من الخباء[3] ـ أخبرنى .

فنظر همام إليه فوجده جليساً له وصديقاً ومؤنساً . فلما رآه كذلك أقبل عليه ، وقال :

---

(١) الظنون : الرجل السيء الظن . وقيل : السيء الظَّنِّ بكل أحد . والظنين : المتهم الذى تُظَنُّ به التهمة . والظن : ما يحصل فى النفس عن أمارة ، فهو شكٌّ راجح ، وفعله من أفعال الرجحان . والظن : اسم لهذا الخاطر الذى يحصل فى النفس ، قال تعالى: ﴿**إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا** ﴿٢٨﴾﴾ (النجم) وجمعه ظنون .

ويستعمل الظن بمعنى اليقين مجازاً للدلالة على أنه كاف فى الهداية لو كان ظناً فكيف لا يهدى وهو يقين ، وكثير من الناس يدّعون اليقين ولا يفعلون ما يقتضيه ، فقوله تعالى : ﴿ **إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ** ﴿٢٠﴾﴾ (الحاقة) .

(٢) هجاه يهجوه هَجْواً ، وهجاء : شتمه بالشعر ، وهو خلاف المدح. والمرأة تهجو زوجها : تذم صحبته .. (لسان العرب ـ مادة هجا) .

(٣) الخباء من الأبنية : هو ما كان من وبر أو صوف ولا يكون من شعر ، وهو على عمودين أو ثلاثة . وما فوق ذلك فهو بيت (اللسان ـ مادة خبا).

أنت امرؤ إما ائتمنتك خالياً فَخُنْـ . . . تَ ، وإما قلت قولاً بلا علم

فَأُبْتَ[1] من الأمر الذى كان بيننا . . . بمنـزلـة الخيـانـة والإثـم

أى : إما أنك خائـن أو آثم ، فإن كنت قد ائتمنتُك على كلمـة نفَّسْتُ[2] بها عن نفسى ، فأنت خائن ، وإن كنت اختلقتها[3] علىَّ فأنت كاذب .

فأعجب زياداً هذا المنطق ، وأقْصَى[4] الواشى ولم يتقبل منه .

ويُقال : إنه خـلع على همام الصلة والعطايا ، فكان همـام حين يرى الواشى يقول له : هل لك فى وشاية أخرى تغنينى .

والحق ـ سبحانه ـ يحمى حُمْق الاختيار الذى وُجِد فى الإنسان حين لا يلتزم بمنهج الله ، ولو أن الإنسـان كـان مُسَيَّـراً ومُكْرهاً على الفـعل لارتاح من هذا الاختيار .

---

(١) آب إلى الشئ : رجع . وآب الغائب يؤوب مآباً : إذا رجع . ويقول سبحانه : ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ﴾ (الغـاشـية) أى : رجـوعـهم . والمآب : المرجع ، قـال تعـالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ (الرعد)

وقال أهل اللغة : الأوَّاب الرجَّاع الذى يرجع إلى التـوبة والطاعة . قال تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ ﴾ (ص) . (لسان العرب ـ مادة : أوب)

(٢) نفَّسْتُ : رفَّهت . يُقَال : اللهم نفِّس عنى : أى فرِّج عنى ووسِّع علىَّ . ونفست عنه تنفيساً أى رفَّهت . يقال : نفَّس الله عنه كربته أى فرَّجها . (لسان العرب ـ مادة نفس).

(٣) خلق الكذب والإفك يخلقه وتخلَّقه واختلقه وافتراه : ابتدعـه . والاختلاق : الكذب ، وهو افتعال من الخلق والإبداع، كأن الكاذب تخلَّق قوله . (لسان العرب ـ مادة : خلق) .

(٤) قـصا عنه : بـعد . والقـصىّ والقـاصى : البـعيـد . والجمـع أقصـاء . وقـصوت عن القـوم : تباعدت. وأقصيته أنا فهو مُقْصىٌ ، ولا تقل مَقْصىّ . (اللسان ـ مادة : قصا)

بهمام ؛ لأن زياداً كان يأخذ بالظن[1] ، لكن الله ألهم همام كلمة ، ظلت دستوراً يطبق .

واستدعى زيادٌ همّاماً .

قال زياد : بلغنى أنك هجوتنى[2] .

قال همام : كلا ، أصلحك الله ، ما فعلت ولا أنت لذلك بأهل .

فقال زياد : إن هذا الرجل ـ وأخرج الرجل من الخباء[3] ـ أخبرنى .

فنظر همام إليه فوجده جليساً له وصديقاً ومؤنساً ، فلما رآه كذلك أقبل عليه ، وقال :

---

(١) الظنون : الرجل السيء الظن . وقيل : السيء الظَّنِّ بكل أحد . والظنين : المتهم الذى تُظَنُّ به التهمة . والظن : ما يحصل فى النفس عن أمارة ، فهو شكٌّ راجح ، وفعله من أفعال الرجحان . والظن : اسم لهذا الخاطر الذى يحصل فى النفس ، قال تعالى: ﴿**إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا** ﴿٢٨﴾﴾ (النجم) وجمعه ظنون .

ويستعمل الظن بمعنى اليقين مجازاً للدلالة على أنه كافٍ فى الهداية لو كان ظناً فكيف لا يهدى وهو يقين ، وكثير من الناس يدَّعون اليقين ولا يفعلون ما يقتضيه ، فقوله تعالى : ﴿ **إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ** ﴿٢٠﴾﴾ (الحاقة) .

(٢) هجاه يهجوه هَجْواً ، وهجاء : شتمه بالشعر ، وهو خلاف المدح. والمرأة تهجو زوجها : تذم صحبته .. (لسان العرب ـ مادة هجا) .

(٣) الخباء من الأبنية : هو ما كان من وبر أو صوف ولا يكون من شعر ، وهو على عمودين أو ثلاثة ، وما فوق ذلك فهو بيت (اللسان ـ مادة خبا).

أولهن : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ(١) الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٦) ﴾ (النساء)

الثانية: ﴿ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيمًا (٢٧) ﴾ (النساء)

الثالثة : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا (٢٨) ﴾ (النساء)

الرابعة : ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا (٣١) ﴾ (النساء)

الخامسة : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا (٤٠) ﴾ (النساء)

السادسة : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ(٢) إِثْمًا عَظِيمًا (٤٨) ﴾ (النساء)

السابعة : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا (٦٤) ﴾ (النساء)

---

(١) السنة فى الأصل سنة الطريق ، وهو طريق سَنَّه أوائل الناس فصار مسلكاً لمن بعدهم . وسَنَّ فلان طريقاً من الخير يسُنُّه إذا ابتدأ أمراً من البرِّ لم يعرفه قومه فاستَنُّوا به وسلكوه . والسنة : الطريقة . والسَّنَن أيضاً . (لسان العرب ـ مادة : سنن) .

(٢) افترى القول : اختلقه واخترعه . والفرية والفَرِيُّ : الكذب الواضح والأمر العظيم المنكر . قال تعالى : ﴿ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧) ﴾ (مريم) أى : منكراً عظيماً مُفترى مُخْترعاً . وافترى عليه الكذب اخترعه. قال تعالى : ﴿فَمَنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩٤)﴾ (آل عمران) أى : اختلقه .

الثامنة : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ ﴾ (النساء)

هذه الآيات الكريمات كانت خَيْراً لهذه الأمة مما طلعتْ عليه الشمس أو غربتْ ، فهى طمأنت الإنسان على أنه إنْ حَمُقَ[1] اختياره فى شىء :

فالله يريد أن يُبصِّره .

والله يريد أن يتوبَ عليه .

والله يريد أن يُخفف عنه .

والله يريد إن اجتنب الكبائر أن يرفع عنه السيئات ويُكفِّرها .

كل هذه مُطَمئنات للنفس البشرية حتى لا تأخذها مسألة اليأس من حُمْق الاختيار .

فيُطمئن الحق ـ سبحانه ـ الإنسان :

أنا خالقك ، وأعرف أنك ضعيف لأن عندك مسلكين . كل مسلك منهما يُغريك :

ـ تكليف الله بما فيه من الخير لك ، وما تنتظره من ثواب الله فى الآخرة يُغرى .

(١) الحمق : ضد العقل . والحمق : قلة العقل . واستحمق الرجل إذا فعل فِعْل الحمقى . وحقيقة الحمق : وضع الشىء فى غير موضعه مع العلم بقُبحه . (لسان العرب ـ مادة حمق).

وشهوة النفس العاجلة تُغرى .

وما دامت المسألة قد تخلخلتْ بين اختيار واختيار ؛ فالضعف ينشأ ؛ لذلك يوضح الحق ـ سبحانه ـ أنه يحترم هذا فى الإنسان لأنه وليد الاختيار ، وأنه ـ سبحانه ـ الذى وَهَب له هذا الاختيار .

والحق ـ سبحانه ـ حين وهب هذا الاختيار لهذا الجنس الذى هو سيد الأجناس كلها ، فإنه ـ تعالى ـ يحب أن يأتى ربه راغباً مُحِباً .

وتحقيقُ الأمر أن كَوْن الله كله مُخْتار ، لكن بعض الخلق كالسماوات والأرض والجبال اختار ألاّ يكون مختاراً ، بل اختاروا أن يكونوا مُسخَّرين طائعين لمراد الله .

يقول الحق ـ سبحانه :

﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ(١) فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا(٢) طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) ﴾ (فصلت)

---

(١) يطلق الدخان على ما يرتفع فوق النار من غازات لم يتمَّ احتراقها . وقد يطلق على البخار وما يشبهه من الغازات المتصاعدة ، قال تعالى : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ .. (١١) ﴾ (فصلت) ، أى : أن مواد النجوم كانت فى حالة غازية كالدخان، ثم خلق منها السماوات والأرض

(٢) أى : استجيبا لأمرى وانفعلا لفعلى . طائعتين أو مكرهتين . قاله ابن كثير فى تفسيره (٤/ ٩٣) .

فالسماء والأرض والجبال طلبت أن تكون مُسخَّرة لإرادة الله، ليس لها هَوَىً أو اختيار أو إرادة ، فالحق ـ سبحانه ـ لم يقهر كل الوجود ، ولكنه كما خيَّر الإنسان خيَّر بقية الأجناس ، فخيَّر السماوات والأرض والجبال فى حمل الأمانة ، فأبتْ واختارت أن تكون مقهورة لا اختيار لها .

فلا أحد من هذه الكائنات له اختيار أنْ يعمل أو لا يعمل ، بل كلها مُسخَّرة؛ ولذلك تجد النواميس الكونية التى لا دَخْل للإنسان فيها ولا لاختياراته دَخْلُ فى أمورها تسير بنظام دقيق ، ففى الوقت الفلانى ستأتى الأرض بين الشمس والقمر، وفى الوقت الفلانى سيقع القمر بين الأرض والشمس ، وسيحدث للشمس كسوف[1] ، وسيحدث للقمر خسوف[2] ، وكل أمر من هذا له حساب دقيق .

---

(١) كسف القمر وكذلك الشمس : ذهب ضوؤها واسودَّت . قال أبو زيد : كسفت الشمس إذا اسودَّت بالنهار ، وكسفت الشمس النجوم إذا غلب ضوؤها على النجوم فلا يبدُ منها شىء . (لسان العرب ـ مادة : كسف) وقال فى القاموس القويم (١/ ١٩٤) :« خسوف الشمس أو كسوفها يقع فى أواخر الشهر العربى فى أيام المحاق، وسببه توسط القمر بين الأرض وبين الشمس فيحجب القمر الشمس ، ويقع ظل القمر على الأرض فلا يصل إليها ضوء الشمس، وقد يحجب جزءاً من الشمس ويُسمّى كسوفاً أو خسوفاً جزئياً ».

(٢) خسوف القمر فى الدنيا هو ظاهرة فلكية يحسب مواعيدها علماء الفلك بكل دقة، وهى مسجلة فى جداول ثابتة لا تتغير ، ويحدث الخسوف دائماً فى وسط الشهر العربى والقمر بدر وسبب الخسوف وقوع ظل الأرض على القمر حين تتوسط الأرض على القمر بين الشمس وبين القمر ، وبما أن القمر يكتسب نوره من الشمس فإنه يخسف إذا وقع عليه ظل الأرض فتحجب الأرض نور الشمس عنه ، ويظل ينكشف الظل شيئاً فشيئاً حتى يعود القمر إلى كماله كما كان قبل الخسوف ».

وقد عقد الحق ـ سبحانه ـ مقارنة بين قوم اتصفوا بالأمانة مع الخَلْق ، وآخرين كانوا على النقيض من ذلك ، فقال ـ تعالى ـ :

﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ(١) يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ(٢) لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا(٣) ... ﴿٧٥﴾ ﴾ (آل عمران)

إنه مُطْلق الإنصاف الإلهى ، فإذا كان الحق ـ سبحانه ـ قد كشف للرسول ﷺ بعضاً من مَكْر أهل الكتاب ، فذلك لا يعنى أن هناك حملة على أهل الكتاب ، وكأنهم كلهم أهل سوء .

لا ، بل منهم مَنْ يتميز بالأمانة ، وهذا القول إنما يؤكد إنصاف الإله المنصف العدل .

فساعة يقول الله : إن بعضاً من أهل الكتاب يتميزون بالأمانة فإن مَنْ تراوده

---

(١) اختلف المفسرون فى مقدار القنطار على أقوال وحاصلها أنه المال الجزيل . فقيل : ألف دينار. وقيل : اثنا عشر ألفاً . وقيل : أربعون ألفاً . وقيل : ستون ألفاً . وقيل غير ذلك . قاله ابن كثير فى تفسيره (١/ ٣٥١) فالقنطار : المقدار الكبير من المال . وجمعه قناطير . قال تعالى : ﴿ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ .. ﴿١٤﴾ ﴾ (آل عمران) والمقنطرة : المتمَّمة ، كما قالوا: ألف مؤلَّفة مُتَمَّمة . (لسان العرب ـ مادة : قنطر) .

(٢) الدينار : فارسى معرب ، وأصله دِنَّار . قال أبو منصور : دينار وقيراط وديباج أصلها أعجمية، غير أن العرب تكلمت بها قديماً فصارت عربية . (لسان العرب ـ مادة : دنر)

(٣) قال ابن كثير فى تفسيره (١/ ٣٧٤) : « أى ما دمت عليه قائماً بالمطالبة والملازمة والإلحاح فى استخلاص حقك ، وإذا كان هذا صنيعه فى الدينار فما فوقه أَوْلى أن لا يؤدِّه إليك » .

فكرة الإسلام يقولون : إن محمداً ﷺ لايتكلم إلا عن نور من ربه .

لكن لو عمَّم القرآن الحكم على الكل، لتساءل الذين يشعرون بالرغبة فى الإيمان بما جاء به رسول الله ﷺ : « لماذا يعم الحكم الجميع ، ونحن نسير فى الطريق إلى الإيمان » .

ولهذا يضع الحق ـ سبحانه ـ القول الفَصْل فى أن منهم أناساً يتجهون إلى الإيمان:

﴿ لَيْسُوا(١) سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ(٢) اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) ﴾ (آل عمران)

وفى هذا ما يُطمئن الذين شغلوا أنفسهم بدراسة هذا الدين، والتفكير فى أن يؤمنوا برسول الله ﷺ .

---

(١) قال ابن مسعود فى تفسير هذه الآية : لا يستوى أهل الكتاب وأمة محمد ﷺ .

قال ابن كثير (١/ ٣٩٧) : « يؤيد هذا القول الحديث الذى رواه الإمام أحمد فى مسنده من حديث ابن مسعود قال : أخّر رسول الله ﷺ صلاة العشاء ، ثم خرج إلى المسجد فإذا الناس ينتظرون الصلاة فقال : « أما إنه ليس من أهل هذه الأديان أحد يذكر الله هذه الساعة غيركم » .. والمشهور عند كثير من المفسرين أن هذه الآيات نزلت فيمن آمن من أحبار أهل الكتاب كعبد الله بن سلام . أى : لا يستوى من تقدم ذكرهم بالذم من أهل الكتاب وهؤلاء الذين أسلموا ».

(٢) قال أهل اللغة : آناء الليل ساعاته ، واحدها (مفردها) إنْى وإنِىٌّ . (لسان العرب ـ مادة: أنى) .

لو كان القرآن قد نزل بلغتهم جميعاً لَقَالَ الذين يفكرون منهم فى الإيمان «نحن لسنا كذلك، ولا نستحق اللعنة، فلماذا يأتى محمد بلعنتنا ؟»

وقد قال بعض المفسرين : إن القرآن يقصد هنا من أهل الكتاب النصارى ، لأن منهم أصحاب ضمير حى ، ونحن نعرف أن المقصود بأهل الكتاب هم اليهود والنصارى .

وفى هذا التفسير إنصاف للنصارى ، فصفة الخير لهم لا ينكرها الله[1] ، بل يشيعها[2] فى قرآنه الذى يتلى إلى يوم الدين ، وذلك ليصدق أيضاً أهل الكتاب أى أمر سىء تنزل فيه آيات من القرآن .

فالقرآن منصف مطلق الإنصاف ، فما دام قد قال خصلة الخير فيهم ، فلا بد أن يكون صادقاً عندما يقول الأمور السيئة التى اتصفوا بها .

والذين يسلكون مسلك خيانة الأمانة من أهل الكتاب إنما اتخذوه منهجاً بدافع عقدىٍّ فى أذهانهم ، ولذلك قال الحق ـ سبحانه ـ عنهم :

---

(١) يقول الحق سبحانه عنهم : ﴿ .. وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ (المائدة) .

(٢) شاع الخبر فى الناس : انتشرو تفرق وذاع وظهر . وأشاع ذكر الشىء : أطاره وأظهره . وأشعت السر شعْتُ به إذا أذعت به. (لسان العرب ـ مادة شيع) ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ (النور).

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ . . ﴿٧٥﴾ ﴾ (آل عمران)

وقد قام بعض بنى إسرائيل على عهد رسول الله ﷺ بخديعة الأميين من العرب المؤمنين ، فأنكروا حقوقهم .

والمقصود بالأميين هنا المؤمنون الذين لم يكونوا من أهل الكتاب ، أو أن يكون المقصود بالأميين أهل مكة[1] ولكن من أين جاء أهل الكتاب بهذا الأسلوب المزدوج فى معاملة الناس ؟

ومن الذى وضع هذا المنهج الذى يقضى بخديعة المؤمنين الأميين؟

وهل الفضائل ومنازل الخلق تختلف فى المعاملة من إنسان إلى آخر ؟

وهل يقضى الخُلق القويم أن يأخذ إنسان الأمانة وينكرها إذا كانت لرجل أمى ؟ ويرد الأمانة ويعترف بها إن كانت ليهودى ؟

هل يصح أن يُقرض إنسان أمواله بالربا لغير اليهود ، ويقرض اليهود دون ربا ؟

إذن : تكون هذه المعاملات مُجْحفة[2] ، هنا فضيلة ، وهناك لا فضيلة ، لا ،

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (١/ ٣٧٤) : « إنما حملهم على جحود الحق أنهم يقولون : ليس علينا فى ديننا حرج فى أكل أموال الأميين وهم العرب فإن الله قد أحلها لنا ، قال الله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ (آل عمران) أى : وقد اختلقوا هذه المقالة ، وائتفكوها بهذه الضلالة . فإن الله حرم عليهم أكل الأموال إلا بحقها وإنما هم قوم بهت » .

(٢) الجحف والمجاحفة : أخذ الشىء واجترافه . وأجحف به : أى ذهب به . وأجحف بهم الدهر: استأصلهم . (لسان العرب ـ مادة : جحف).

إن القضية يجب أن تكون مُسْتوية ومكتملة فى كل وقت وكل زمان ولكل إنسان ، ولا ينبغى أن تتنوع .

من أين إذن جاءوا بهذا القول ، وهم أهل كتاب ؟

إن هذا ضد منهج الكتاب الذى أنزله الله عليهم ، بل هو من التحريف والتحوير[1] ، لقد خدعوا أنفسهم وألصقوا بالتشريع ماليس فيه ، فالكتاب السماوى الذى نزل عليهم ليس به تصنيف البشر صنفين :

صنف هم أهل الكتاب ، ولهم معاملة خاصة .

وصنف هم الأميون ، ولهم معاملة أخرى .

وكان عليهم أن يتعلموا من عدالة رسول الله ﷺ فى معاملتهم .

والذين[2] استباحوا خيانة الأمانة من أهل الكتاب ، إنما عميت بصيرتهم عن أن رسول الله ﷺ قد نال الشهرة بالأمانة، سواء قبل الرسالة أو بعدها ، وعميت أبصارهم .

---

(١) ولذلك قال الحق سبحانه عنهم : ﴿ **وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾** ﴾ (آل عمران)

(٢) أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن جريج فى الآية قال : بايع اليهود رجال من المسلمين فى الجاهلية . فلما أسلموا تقاضوهم ثمن بيوعهم فقالوا : ليس علينا أمانة ، ولا قضاء لكم عندنا لأنكم تركتم دينكم الذى كنتم عليه ، وادعوا أنهم وجدوا ذلك فى كتابهم ، فقال الله : ﴿ **وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾** ﴾ (آل عمران) . أورده السيوطى فى الدر المنثور (٢/ ٢٤٤)

إن الدين الحقَّ لا يُفرِّق فى أداء الأمانة بين صنف من البشر ، وصنف آخر ، فالدين الحق يضم تشريعاً من إله خلق الجميع ، وهكذا نجد أن تشريعهم بالتفرقة فى أداء الأمانة هو تشريع من عند أنفسهم ، وليس من الرب المتولى شئون خلقه جميعاً .

وهم فى هذا ﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ (آل عمران)

يعلمون ماذا ؟

يعلمون أن قولهم كذب ، فهم يعرفون الحكم الصحيح وينحرفون عنه ، ويأليتهم قالوا: إن ذلك الحكم من عند أنفسهم ، لكنهم ينسبون ذلك إلى تعاليم دينهم ، وتعاليم الدين ـ كما قلنا ـ مأخوذة من الله .

وهم بذلك ـ والعياذ بالله ـ يفترون على الله كذباً بأنه خلق خلقاً ، ثم صنفهم صنفين :

ـ صنفاً تؤدى الأمانة له .

ـ وصنفاً لا تؤدى الأمانة له .

وهكذا كذبوا على الله ويعلمون أنهم كاذبون ،وهذا هو الافتراء ، وهم أيضاً يعلمون العقوبة التى تلحق من يكذب على الله ، ورغم ذلك كذبوا [1].

(١) أوضح الحق تعالى هذه العقوبة فى قوله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ (آل عمران).

ثم يقول رسول الله ﷺ تعقيباً على هذا الحديث القدسي:

« فلم يلبث ـ أي آدم ـ في الجنة إلا ما بين الصلاة الأولى إلى العصر[1] ، حتى أخرجه الشيطان منها » .

يقول الحق ـ سبحانه :

﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا[2] حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥)﴾ (البقرة)

بعد أن خلق الله ـ سبحانه وتعالى ـ آدم ، وأمر الملائكة أن تسجد له ، وحدث كفر إبليس ومعصيته ، أراد الله ـ جل جلاله ـ أن يمارس آدم مهمته على الأرض ، وليقوم بحمل الأمانة التي حملها، والتي أبت السماوات والأرض أن يحملنها .

ولكن الحق ـ سبحانه ـ قبل أن يمارس مهمته أدخله الله في تجربة عملية عن المنهج الذي سيتبعه الإنسان في الأرض ، وعن الغواية التي سيتعرض لها من إبليس .

---

(١) أخرج الحاكم في مستدركه (٢/ ٥٤٢) عن ابن عباس أنه قال : « ما سكن آدم الجنة إلا ما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس » قال الحاكم : « هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ». وقال عبد بن حميد في تفسيره : عن الحسن قال : لبث آدم في الجنة ساعة من نهار ، تلك الساعة ثلاثون ومائة سنة من أيام الدنيا . نقله ابن كثير في تفسيره (١/ ٨٠).

(٢) عيش رغد : كثير مخصب رفيه غزير. عيشة رغد ورغَد: أي واسعة طيبة، والرغد: الكثيرالواسع الذي لا يصيبك من مال أو ماء أو عيش أو كلأ (لسان العرب ـ مادة رغد) قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢)﴾ (النحل) وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٥٨٩) : « رغد : أي هنيئاً سهلاً ».

فالله ـ سبحانه وتعالى ـ رحمة منه لم يشأ أن يبدأ آدم مهمته فى الوجود على أساس نظرى ؛ لأن هناك فارقاً بين الكلام النظرى والتجربة .

قد يقال لك شىء وتوافق عليه من الناحية النظرية ، ولكن عندما يأتى الفعل فإنك لا تفعل شيئاً .

إذن :فالفترة التى عاش فيها آدم فى الجنة كانت تطبيقاً عملياً لمنهج العبودية ، حتى إذا ما خرج إلى مهمته لم يخرج بمبدأ نظرى ، بل خرج بمنهج عملى تعرض فيه لافعل ولا تفعل . والحلال والحرام ، وإغواء الشيطان والمعصية .

ثم بعد ذلك يتعلم كيف يتوب ويستغفر ويعود إلى الله ، وليعرف بنو آدم أن الله لا يغلق بابه فى وجه العاصى ، وإنما يفتح له باب التوبة(١) .

والحق ـ سبحانه ـ أسكن آدم الجنة ، وبعض الناس يقول : إنها جنة الخلد التى سيدخل فها المؤمنون فى الآخرة .. وبعضهم قال : لولا أن آدم عصى لكنَّا نعيش فى الجنة .

نقول لهم : لا ، جنة الآخرة هى للآخرة ، ولا يعيش فيها إنسان فترة من الوقت ، ثم بعد ذلك يطرد منها ، بل هى كما أخبرنا الله ـ تعالى ـ جنة الخلد(٢) كل من دخلها عاش فى نعيم أبدى .

---

(١) يقول تعالى : ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾ (البقرة) .
ويقول تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴿٤٨﴾ ﴾ (النساء).
ويقول أيضًا : ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ (الزمر).

(٢) وصف تعالى جنة الآخرة بأنها جنة الخلد فى قوله تعالى : ﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا ﴿١٦﴾ ﴾=

إذن : فما هى الجنة التى عاش فيها آدم وحواء ؟

هذه الجنة هى جنة التجربة ، أو المكان الذى تمت فيه تجربة تطبيق المنهج .

والحق - سبحانه ـ يريد منهجاً يحكم حركة الحياة ، ويضمن للخلافة فى الأرض أن تؤدى مهمتها أداء يسعد الإنسان فيها فى الدنيا وينعم فى الآخرة .

لذلك كان لابد أن يدرّب الحق ـ سبحانه ـ خليفته فى الأرض على المنهج ، حتى لا يتلقى المنهج تلقيًا نظرياً ، لذلك شاء الحق ـ سبحانه وتعالى ـ ألا يجعل آدم يباشر مهمة الخلافة إلا بعد أن يعطيه تدريباً على المهمة فى « افعل » و « لا تفعل » وحذره من العقبات التى تعترض « افعل » حتى لا تجىء فى منطقة « لا تفعل » .

وحذره كذلك من العقبات فى منطقة « لا تفعل » حتى لا تجىء فى منطقة «افعل » .

واختار له مكاناً فيه كل مقومات الحياة وترفها[1] حتى لا يتعب فى أى شىء أبداً فى أثناء التدريب ، وأوضح له أن هذه هى الجنة ، وهى بستان جميل ، فيه كل مقومات الحياة وترفها .

= (الفرقان) والخلق : دوام البقاء فى دار لا يخرج منها . وخلد بالمكان : أطال الإقامة به . (لسان العرب ـ مادة : خلد)

(١) الترف : التنعم . والمترف : الذى قد أبطرته النعمة وسعة العيش . والمترف : المتنعم المتوسع فى ملاذ الدنيا وشهواتها . (لسان العرب ـ مادة : ترف) .

ونحن إذا قرأنا القرآن الكريم نجد أن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ قد أطلق لفظ الجنة على جنات الأرض ، والجنة تأتى من لفظ « جن » وهو الستر ، ذلك أن فيها أشجاراً كثيفة تستر من يعيش فيها ، فلا يراه أحد ، وفيها ثمرات تعطيه لاستمرار الحياة ، فلا يحتاج إلى أن يخرج منها.

فالحق ـ سبحانه وتعالى ـ جعل الجنة كمكان فيه كل مقومات الحياة لآدم بصنع الله ـ سبحانه ـ وإعداده ، وأعطى له منها القدر الذى يعطى المقوم بلا فضلات تتعبه ، ولا ينتفخ ولا يعانى من متاعب فى الصحة .. الخ .

والحق ـ سبحانه ـ قادر على كل شىء ، بدليل أنه يرعى الجنين فى بطن أمه ، والجنين ينمو ، والنمو معناه أنه يتلقى الغذاء ، ولا يخرج منه فضلات ، لأن الغذاء الذى يدخله الله له على قدر النمو فقط .

وحين يكون ربنا هو الذى يمد جنة التدريب بالغذاء ، فهو قادر على كامل الإعداد .

إذن : فالجنة التى وجد فيها آدم بداية ليست هى جنة الجزاء ، لأن جنة الجزاء لا بد أن تأتى بعد التكليف ، ولا يمكن أن يكون فيها تكليف ، ومن يسكنها لا يخرج منها[1].

---

(١) نقل ابن القيم اختلاف المفسرين والعلماء فى الجنة التى أسكنها آدم وزوجه ، هل هى جنة الخلد فى السماء ، أم جنة فى الأرض على ربوة عالية من روابى الأرض ، فقال : « قال منذر ابن سعيد فى تفسيره : وأما قوله تعالى لآدم : ﴿ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ .. ﴿٣٥﴾ ﴾ (البقرة) فقالت طائفة : أسكن الله آدم جنة الخلد التى يدخلها المؤمنون يوم القيامة . وقال آخرون : =

وآدم ـ كما علمنا ـ مخلوق للأرض ، إذن : وجود الجنة هنا يعنى أنها مكان التدريب على المهمة فى الخلافة .

إذن : فهذه الجنة ليست جنة الخلد ، وإنما هى جنة سيمارس فيها تجربة تطبيق المنهج .

ولذلك لا يقال : كيف دخل إبليس الجنة بعد أن عصى وكفر ، لأن هذه ليست جنة الخلد.

والحق ـ سبحانه ـ جعل هذه الجنة مرحلة من مراحل ما قبل الاستخلاف[1] فى الأرض . إنها كانت تدريباً على المهمة التى سيقوم بها فى الأرض .

وقوله تعالى : ﴿ **وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ** ﴾ (البقرة : ٣٥)

= هى جنة غيرها جعلها الله له وأسكنه إياها ليست جنة الخلد . قال : وهذا قول تكثر الدلائل الشاهدة له والموجبة للقول به .

وقال أبو الحسن الماوردى فى تفسيره : واختلف الناس فى الجنة التى أسكناها على قولين :

أحدهما : أنها جنة الخلد .

الثانى : أنها جنة أعدها الله تعالى لهما وجعلها دار ابتلاء . وليست هى جنة الخلد التى جعلها دار جزاء ، ومن قال بهذا اختلفوا فيه على قولين :

أحدهما : أنها فى السماء ، لأنه أهبطهما منها .

الثانى : أنها فى الأرض ، لأنه امتحنهما فيها بالنهى عن الشجرة التى نهيا عنها دون غيرها من الثمار .

(١) وذلك فى قوله تعالى : ﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ** ﴿٣٠﴾ ﴾ (البقرة)

والخلافة والاستخلاف هنا عن الله ـ سبحانه ـ لا كما قال البعض أنه خلافة بشر لبشر. أو =

هو استكمال للمنهج ، فهناك أمر ونهى ، افعل ولا تفعل . ﴿ **اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ** ﴾ (البقرة : ٣٥) هذا أمر .

﴿ **وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا** ﴾ (البقرة : ٣٥)

هذا أمر آخر .

أما قوله ـ تعالى : ﴿ **وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ** ﴾ (البقرة :٣٥) فهو نهى.

وهذا أول منهج يعلم الإنسان الطاعة لله ـ سبحانه وتعالى ـ والامتناع عما نهي عنه ، وكل رسائل السماء[1] ومناهج الله فى الأرض أمر ونهى ، افعل كذا، ولا تفعل كذا .

= خلافة عن الجن فى الأرض وقد كانوا فيها ، أو خلافة عن الملائكة .

يقول البهى الخولى فى كتابه القيم « آدم ـ فلسفة تقويم الإنسان وخلافته » : « أما أنها خلافة عن الله ، فذلك ما نجد له وجوهًا من الاستدلال يطمئن إليها العقل منها : تنويه الله به ، فإنه سبحانه قد أعلنها ، ومهد لها فى الملأ الأعلى قبل إظهارها بقوله : ﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً .. ﴿٣٠﴾** ﴾ (البقرة) أى : سأجعل فى الأرض خليفة ، وإنما يكون ذلك حين الحفاوة بالأمور الجليلة والأقدار ذات الشأن .

وليس من ذلك فى شىء أن بشراً سيخلف بشراً فى هذه الأرض أو خلقاً سواه ، جناً أو غيره ، فإن العقل ـ على فرض جواز ذلك ـ لا يرى فى شىء منه أى ميزة تدعو للحفاوة بها ، والتمهيد لها قبل ظهورها على النحو الذى بينا .

ومنها ما نلحظه فى دعوة الملائكة إلى مودة ذلك الخليفة ، والحفاوة به ، والسجود له سجود تحية وتكرمة ، وهو أمر خطير لا نجد له حكمة ، إذا كان قد أريد لهذا الخليفة أن يكون خليفة لجن أو بشر أو نحوهما .. إنما تبدو الحكمة وتستقيم الدعوة حين نلحظ أن المحتفى به خليفة عن الله جل شأنه » . (طبعة دار التراث القاهرة ـ صـ ١٢١، ١٢٢).

(١) فكل الأنبياء والرسل جاءوا بالأمر والنهى ، حتى أولئك الرسل الذين لم تنزل عليهم كتب سماوية جاءوا بالأمر والنهى فدعوتهم إلى عبادة الله وحده أمر ، ونهيهم عن عبادة غير الله =

وهكذا فإن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ ضمن لآدم الحياة ، وليست الحياة فقط ولكن رغداً ، أى مباحاً وبلا تعب وعن سعةٍ ، وبدون مشقة ، كما أننا نلاحظ هنا أن المباح كثير والممنوع قليل .

فكل ما فى الجنة من الطعام والشراب مباح لآدم ، ولا قيد إلا على شىء واحد ، شجرة واحدة[1] من بين ألوف الأشجار التى كانت موجودة فى الجنة ، شجرة واحدة فقط هى الممنوعة .

وإذا نظرت إلى منهج السماء إلى الأرض ، تجد أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد أباح فيه نعماً لا تحصى ولا تعد ، وقيَّد فيه أقل القليل ، فالذى نهانا الله عنه بالنسبة لنعم الأرض هو أقل القليل ، كما كان فى جنة آدم شجرة واحدة ، والمباح بعد ذلك كثير .

= نهى . وبدهى أن الرسل مثل موسى وداود وإبراهيم ومحمد ﷺ جاءوا بكتب بها تكاليف ونواه وأحكام شرعية ، أما عيسى عليه السلام فلم يأت بشريعة جديدة ، بل جاء بالدعوة إلى الالتزام بشريعة موسى عليه السلام ، فهو رسول من بنى إسرائيل أرسل لبنى إسرائيل ، ولذلك جاء فى الإنجيل « ما جئت لأنقض الناموس » ولذلك قالت الجن عندما سمعت تلاوة رسول الله ﷺ للقرآن : ﴿ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ ﴾ (الأحقاف). فلم يذكروا كتباً أو شريعة لعيسى عليه السلام . قال ابن كثير فى تفسيره (٤/ ١٧٠) : « لم يذكروا عيسى لأن عيسى عليه السلام أنزل عليه الإنجيل فيه مواعظ وترقيقات وقليل من التحليل والتحريم ، وهو فى الحقيقة كالمتمم لشريعة التوراة ، فالعمدة هو التوراة ، فلهذا قالوا ﴿ أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ ﴾ (الأحقاف).

(١) ذكر ابن كثير فى تفسيره (١/ ٧٩) ستة أقوال فى تعيين وتحديد هذه الشجرة : الكرم ، الحنطة، السنبلة ، البر ، النخلة ، التينة . ثم قال : « قال الإمام العلامة أبو جعفر بن جرير =

وفى آية أخرى يقول الحق ـ سبحانه :

﴿ إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَىٰ (١١٨) وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَىٰ(١) (١١٩) ﴾ (طه)

هذه عناصر الحياة التى وفرها الله لآدم وزوجه فى جنة التجربة الإيمانية العملية على التكليف .

والحق ـ تبارك وتعالى ـ أباح لآدم وحواء أن يأكلا كما يشاءان من الجنة ، والجنة فيها أصناف كثيرة متعددة ولذلك قال: ﴿حيث شئتما ..(٣٥)﴾ (البقرة)

وأنت لا تستطيع أن تقدم لإنسان صنفاً أو صنفين ، وتقول له : كل ما شئت، لأنه لا يوجد أمامه إلا مجال ضيق للاختيار ، كما أن قلة عدد الأصناف تجعل النفس تملُّ ، ولذلك لا بد أن تكون هناك أصناف متعددة وكثيرة .

= رحمه الله : « والصواب فى ذلك أن يقال : إن الله عز وجل ثناؤه نهى آدم وزوجه عن أكل شجرة بعينها من أشجار الجنة دون سائر أشجارها فأكلا منها ، ولا علم عندنا بأى شجرة كانت على التعيين ، لأن الله لم يضع لعباده دليلاً على ذلك فى القرآن ولا من السنة الصحيحة ، وقد قيل : كانت شجرة البر . وقيل : كانت شجرة العنب . وقيل: كانت شجرة التين . وجائز أن تكون واحدة منها وذلك علم إذا علم لم ينفع العالم به علمه وإن جهله جاهل لم يضره جهله به والله أعلم . وكذلك رجح الإبهام الرازى فى تفسيره وغيره وهو الصواب » .

(١) ضحى الرجل يَضْحَى ضحاً إذا أصابه حر الشمس . قال الله تعالى : ﴿ **وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَىٰ (١١٩)** ﴾ (طه) قال : لا يؤذيك حر الشمس . وقال الفراء : لا تضحى . لاتصيبك شمس مؤذية . (لسان العرب ـ مادة : ضحا) .

ثم جاء النهى فى قوله ـ تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ (البقرة)

أى : لا تقتربا من مكانها .

ولكن : لماذا لم يقل الحق ـ سبحانه وتعالى : ولا تأكلا من هذه الشجرة؟

نقول : لأن الله ـ جل جلاله ـ رحمة بآدم وزوجه كان لا يريدهما أن يقعا فى غواية المعصية ، فلو أنه ـ سبحانه ـ قال : ولا تأكلا من هذه الشجرة لكان مباحاً لهما أن يقتربا منها فتجذبهما بجمال منظرها ، ويقتربا من ثمارها فتفتنهما برائحتها العذبة ، ولونها الجذاب .

حينئذ يحدث الإغواء ، وتمتد أيديهما تحت هذا الإغراء إلى الشجرة ليأكلا منها .

ولكن الله ـ تعالى ـ يعلم أن النفس البشرية إذا حرم عليها شىء ولم تُحُم حوله كان ذلك أدعى ألا تفعله ، فالله ـ تعالى ـ حين حرم الخمر لم يقل : حُرِّمت عليكم الخمر، وإلا كنا جلسنا فى مجالس الخمر ومع الذين يشربونها ، أو نتاجر فيها ، وهذا كله إغراء بشرب الخمر .

والحق ـ سبحانه ـ قال فى تحريم الخمر :

﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ(١) وَالأَزْلامُ(٢) رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ

(١) الأنصاب : الأوثان ، جمع نصب . قال القتيبى : النصب صنم أو حجر ، وكانت الجاهلية تنصبه ، تذبح عنده فيحمر للدم . وأصل المادة : نصب الشىء : وضعه ورفعه . وقال ابن سيده : الأنصاب حجارة كانت حول الكعبة تنصب فيُهَلُّ عليها ويذبح لغير الله تعالى . (لسان العرب ـ مادة : نصب) .

(٢) الأزلام : جمع زلم ، وهى القداح التى كانت فى الجاهلية ، كان الرجل منهم يضعها فى=

فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ (المائدة)

واجتنابه يكون بألا توجد معه فى مكان واحد يخايلك ويشاغلك ويتمثل لك ، فعندما تكون مثلاً فى منطقة الذين يشربون الخمر يقول لك الحق (اجتنبها).

أى : لا تذهب إليها[1]، لأن الخمر عندما توجد أمامك وترى من يشربون وهم مستريحون مسرورون ، فقد تشربها .

لكن عندما تجتنب الخمر ومجالسها فأنت لا تقع فى براثنها[2] وإغرائها .

ولذلك قلنا : إن الاجتناب أبلغ من التحريم .

فإذا رأيت مكاناً فيه خمر فابتعد عنه فى الحال ،حتى لا يغريك منظرالخمر وشاربها بأن تفعل مثله ، أما إذا كانت غائبة عنك فلا تخطر على بالك فلا تقع فيها .

= وعاء له ، فإذا أراد سفراً أو رواحاً أو أمراً مهماً أدخل يده فأخرج منها زُلَمًا ، فإن خرج الأمر مضى لشأنه ، وإن خرج النهى كفَّ عنه ولم يفعله (لسان العرب ـ مادة : زلم) .

(١) عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال : « لعن الله الخمر ولعن شاربها وساقيها وعاصرها ومعتصرها وبائعها ومبتاعها وحاملها والمحمولة إليه وآكل ثمنها » أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ٩٧) والحاكم فى مستدركه (٢/ ٣٢).

(٢) البراثن فى أصل اللغة : جمع بُرثُن ، وهو مخلب الأسد . وقيل : البرثن الكف بكمالها مع الأصابع . (لسان العرب ـ مادة : برثن) والمقصود هنا أن للخمر والأنصاب والأزلام ضراوة واعتياداً إذا اعتادها الإنسان كأنه وقع بين مخالب أسد ، فكيف النجاة منه ؟

ثم يقول ـ سبحانه :

﴿ فَأَزَلَّهُمَا[1] الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾ (البقرة)

فالحق ـ سبحانه ـ بعد أن أسكن آدم وزوجه فى الجنة ، وأخبرهما بما هو حلال وما هو حرام ، بدأ الشيطان مهمته ، مهمة عداوته الرهيبة لآدم وذريته .

والحق ـ سبحانه ـ يقول : ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ.. ﴿٣٦﴾ ﴾ (البقرة)

أى: أن الشيطان باشر مهمته ، فأوقعهما فى الزَّلة ، وهى العثرة[2] أو الكبوة[3].

كيف حدث هذا ، والله ـ تعالى ـ قد نصح آدم وزوجه ألا يتبعا الشيطان ، وأبلغه أنه عدو لهما فى قوله ـ تعالى:

﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ﴿١١٧﴾﴾ (طه)

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (١/ ٣٥٤) : « قرأ الجماعة : فأزلهما بغير ألف ، من الزلة وهى الخطيئة أى : استزلهما وأوقعهما فيها ، وقرأ حمزة : فأزالهما بألف، من التنحية أى نحاهما . قال ابن كيسان : فأزالهما من الزوال أى : صرفهما عما كانا عليه من الطاعة إلى المعصية » .

(٢) عثر وتعثر : كبا . والعثرة : الكبوة والزلة .ويقال : عثر به فرسه فسقط وتعثر لسانه :تلعثم . وفى الحديث : « لا حليم إلا ذو عثرة » . أى : لا يحصل له الحلم ويوصف به حتى يركب الأمور وتنخرق عليه ويعثر فيها فيعتبر بها ويستبين مواضع الخطأ فيجتنبها ، ويدل عليه قوله بعده : « ولا حليم إلا ذو تجربة » (لسان العرب ـ مادة : عثر)

(٣) الكبوة مثل الوقفة تكون عن الشىء يكرهه الإنسان يُدعى إليه أو يراد منه كوقفة العاثر . والكبوة أيضاً : السقوط للوجه . وكبا يكبو كبوة إذا عثر . (لسان العرب ـ مادة : كبو) .

إذن : فالعداوة مُعلنة ومُسْبقة ، ولنفرض أنها غير مُعْلنة ، ألم يشهد آدم الموقف الذى عصى فيه إبليس أمر الله ولم يسجد لآدم ؟ ألم يعرف مدى تكبُّر إبليس عليه فى قوله : أنا خير منه[1] . وقوله : أأسجد لمن خلقت طيناً[2].

كل هذا كان ينبغى أن ينبه آدم إلى أن إبليس لن يأتى له بخير أبداً .

والحق سبحانه وتعالى لم يكتف بالدلالات الطبيعية التى نشأت عن موقف إبليس فى رفضه السجود ، بل أخبر آدم أن الشيطان عدو له ولزوجه .

يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ... ﴿٣٦﴾ ﴾ (البقرة)

من ماذا أخرجهما ؟

أخرجهما من العيش الرغيد [3] ، من واسع النعمة فى الجنة ، من الهدوء والاطمئنان فى أن رزقهما يأتيهما بلا تعب .

---

(١) يقص الحق سبحانه لنا هذا فى سورة الأعراف : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ (الأعراف)

وجاءت أيضاً فى سورة ص : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ (ص)

(٢) وذلك فى قوله تعالى عنه : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ ﴾ (الإسراء)

(٣) عيش رغد : كثير رفيه غزير . الرغد : الكثير الواسع الذى لا يعييك من مال أو ماء أو =

فكان يجب على آدم أن يتنبه إلى أن إبليس يعتبره السبب فى طرده من رحمة الله ، فلا يقبل منه نصيحة ولا كلاماً ويحتاط . ولكن :

كيف أزل الشيطان آدم وزوجه وأخرجهما من الجنة ؟

قال تعالى :

﴿فَوَسْوَسَ(١) لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا(٢) وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾

(الأعراف)

أخرجهما بالوسوسة والكذب والمخادعة ، فكلمة « وسوس » تدل على الهمس فى الإغواء ، ونحن نعرف أن الذى يتكلم فى خير لا يهمه أن يسمعه الناس ، لكن من يتكلم فى شر فيهمس خوفاً من أن يفضحه أحد ، وكأن كل شر لا بد أن يأتى همساً ، و صاحبه يعرف أن هذا الكلام لا يصح أن يحدث ، ويستحى منه ، ولا يحب أن يعرف المجتمع عنه هذا الشىء .

و(وسوس) مأخوذة من الصوت المغرى ، لأن الوسوسة هى صوت رنين الذهب والحلى .

= عيش أو كلأ . (لسان العرب : مادة رغد).

(١) الوسوسة والوسواس : الصوت الخفى . وهو أيضاً حديث النفس . والوسواس : الشيطان ، وقد وسوس فى صدره ووسوس إليه . (لسان العرب ـ مادة : وسوس)

(٢) السوءات جمع سوأة ، وهى : العورة والفاحشة . والسوأة : الفرج . قال الليث : السوأة : فرج الرجل والمرأة . قال ابن الأثير : السوأة فى الأصل الفرج ثم نقل إلى كل ما يستحيا منه من قول أو فعل . (لسان العرب ـ مادة : سوأ)

إذن : فما قاله الشيطان لآدم وزوجه هو كلام مُغْرٍ ليلفتهما عن أوامر رب حكيم .

وقول الحق سبحانه : ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ...﴿٢٠﴾﴾ (الأعراف)

يعطينا حيثيات البراءة لحواء ، لأن الشائع أن حواء هى التى ألحت على آدم ليأكلا من الشجرة ، وكثير منا يظلم حواء على الرغم من أن القرآن يؤكد أن الوسوسة كانت لآدم وحواء معاً .

وهل وسوس الشيطان ليبدى لهما ما ووري من سوءاتهما ، أو وسوس ليعصيا الله ؟

لقد وسوس ليعصيا الله ، وكان يعلم أن هناك عقوبة على المعصية ، ويعلم أنهما حين يأكلان من الشيء الذى حرمه ربنا ستظهر سوءاتهما .

والسوءة هى ما يسوء النظر إليه ، ونطلقها على العورة ، والفطرة تستنكف أن يرى الإنسان المكتمل الإنسانية السوءة ، وكأنهما فى البداية لم ير أحدهما سوءة الآخر أو سوءة نفسه ، لأن الحق سبحانه يقول :

﴿ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ[1] عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا ... ﴿٢٠﴾﴾ (الأعراف)

إن فتحة العورة سوءة باعتبار ما يخرج منها ، وحينما كانا يأكلان من إعداد ربنا لم يكونا ـ كما قلنا ـ فى حاجة إلى إخراج فضلات ، لأن إعداد الله يعطى

(١) وريت الشيء ووواريته : أخفيته . وتوارى هو استتر . ووُورى : سُتر (لسان العرب ـ مادة : ورى)

كلاً منهما على القدر الكافى للحركة والفعل ، وكانت المسألة مجرد فتحات مثل بعضها .

لكن حينما يخرجان عن مرادات الله فى الطعام ، ويأكلان غير ما أمر الله به ويمارسان اختيار الطعام بدأت الفضلات فى الخروج بما لها من رائحة غير مقبولة .

فهل ظهور السوءة لهما هو رمز إلى أن هناك مخالفة لمنهج الله ، سواء أكان ذلك فى القيم والمعنويات ، أم فى الأمور المادية ؟

نعم ، لأن كل شىء يخالف فيه منهج الله لا بد أن تبدو فيه العورة ، وإن رأيتَ أى عورة فى المجتمع فاعلم أن منهجاً من مناهج الله قد عطل .

وينقل القرآن ما قاله لهما الشيطان من وسوسة : ﴿ **وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾** ﴾ (الأعراف)

لقد همس الشيطان وأوحى لهما بأن الحق أراد أن لا تقربا هذه الشجرة ، لأن من يأكل منها يصير ملكاً أو خالداً ، ولم يمحص[1] أى منهما كلمات الشيطان ليعرف أن كيده كان ضعيفاً واهياً وغبياً .

---

(١) المحص فى اللغة : التخليص والتنقية . والتمحيص : الاختبار والابتلاء .

ويقال : محصت الذهب بالنار إذا خلعته مما يشوبه .

(لسان العرب ـ مادة : محص) والتمحيص المطلوب من آدم هو وزن كلام الشيطان وتدبره والتفكر فيه لئلا يقع فى المحظور الذى نهاه عنه ربه .

لأنه ما دام يعرف أن من يأكل من هذه الشجرة يصير ملكاً أو يبقى من الخالدين ، فلماذا لم يخطف منها ما يجعله ملكاً أو خالداً ؟

وفى هذا درس يبين لنا أن من يزين له ، ويتصدى له أحد بالإغواء يجب عليه أن يمحص إلى أى غواية يسير ، وأن يدقق فى نتائج ما سوف يفعل .

وإذا كان الشيطان قد قال :

﴿ قَالَ أَنظِرْنِي(١) إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ (الأعراف)

فلماذا لم ينقذ نفسه بالأكل من هذه الشجرة وتنتهى المسألة ؟

إذن : كان ما يقوله الشيطان كذباً .

وفى إغواء آخر قال إبليس :

﴿ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ(٢) ﴿١٢٠﴾ ﴾ (طه)

وهكذا نعرف أن إبليس يأتى للإنسان من أكثر من زاوية ؛ لذلك كانت الزاوية الأولى هى أن هذه الشجرة من يأكل منها يكون ملكاً ، أو يكون خالداً .

وكان الإغواء الثانى أن هذه الشجرة تعطى لمن يأكل منها بجانب الخلود مُلْكاً لا ينتهى .

---

(١) الإنظار : التأخير والإمهال . وأنظره : أخره . واستنظره : طلب منه النظرة واستمهله . (لسان العرب ـ مادة : نظر)

(٢) بلى الثوب بلى وبلاء : رث وصار عرضة للفناء . قال تعالى : ﴿ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ ﴾ (طه) ، أى : لا يفنى ولا يزول ولا ينتهى .

إذن : فإبليس يُصـوِّر للإنسان أن ما منعـه الله عنه هو الخيـر ، وأنه لو عصى فسيحصل على المال والنفوذ .

لقد أكل آدم وحـواء من الشجـرة فلم يخلدا ولـم يأت لهما مـلك لا ينتهى ، بل ظهرت عـوراتهما ، وعـرفا أن إبليس كان كـاذباً ، وأن الله سبحـانه وتعالى بمنهجه وما ينهانا عنه إنما كان يريد لهما الخير .

ولكن الشيطان يأتى ويُزيِّن للإنسان طريق الباطل ، ولو أن آدم كان قد حكَّم عقله لعرف كذب وسوسة إبليس ، فإبليس كما يدعى كان يدل آدم على شجرة الخلد ، ولو أن هذه الشـجرة كـانت تعطى الخلد فـعلاً لمـا طلب إبليس من الله تبارك وتعالى أن يُبـقِى على حياته إلى يوم القيامـة ، بل لأكل من الشجرة ونال الخلد .

ولكن إبليـس دخل من ناحـيـة الغـفلـة فى النفس البـشـريـة ليـوقع آدم فى المعصية.

وهو يدخل إلى أبناء آدم من ناحـيـة الغفلة أيـضاً ، ولو أن أبناء آدم حكَّمـوا عقولهم وهم يعرفون أن هناك عداوة مسبقة بين آدم وإبليس ، وأن إبليس طلب من الله سبحانه وتعالى أن يبقيه إلى يوم القيامة لينتقم من آدم وأولاده بإغوائهم على المعـصيـة ، لو تنبهنا إلى ذلك لأخـذنا حذرنا ، وعندمـا تنكشف وسـوسة الشيطان فإنه يهرب .

إبليس دخل إلى ناحية الغواية بأن أقـسم بعزة الله ، وأن الله عزيز لا يحتاج

لخلقه ، ولا يضره سبحانه وتعالى من كفر ، ولا يزيد شيئاً فى مُلْكه من آمن .

قال : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾ (ص)

دخل إبليس إلى غواية بنى آدم بعـزة الله سبحانه وتعـالى عن خلقه ، فلو أن الله سبحـانه أراد خلقه جميعاً مـهديين ما استطاع إبليس أن يتقدم نـاحية واحد منهم .

ومعنى عزة الله أنه غنى عن خلقـه جميعاً ، لا يحتاج لأحـد منهم ، فهو الله بجلال وجمال صفاته قبل أن يوجد أحد من خلقه قد خلق هذا الكون وأوجده ولم يستعن بأحد ، آمن به الناس جميعاً ما زاد ذلك فى ملكه شيئاً ، ولو كفر به الناس جميعاً ما نقص ذلك من ملكه شيئاً .

وقسم إبليس بعـزة الله إقرار منه بها ، وقد أقسم بعـزة الله أن يطلب الغواية للإنسان ، لأن الله سبحانـه وتعالى ما دام لا يزيد ملكه ولا ينقص بإيمان خلقه ، لذلك أعطاهم حرية الاختيار .

ولو أراد الله الناس مـؤمنين مـا استطـاع إبليس أن يقتـرب من أحـد منهم ، ويحاول إبليس بحقده على الإنسان وكرهه له أن يصرفه عن طريق الإيمان .

ولكن هل يملك إبليس قوة إغواء على مؤمن ؟

لا ، ولذلك فهناك استثناء :

﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ (ص)

أى : أن إبليس لا يستطيع أن يقترب من عبد مؤمن مخلص فى إيمانه .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ فَدَلاَّهُمَا(١) بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا(٢) يَخْصِفَانِ(٣) عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٢٢)﴾ (الأعراف)

أى : أنزلهما من رتبة الطاعة إلى دَرَك(٤) المعصية والذنب ، مما غرَّهما به وخدعهما من القسم . والدل مأخوذ من دَلَّى رِجْليه فى البئر كى يرى إن كان فيه ماء أم لا ، أو دَلَّى حبل الدلو لينزله فى البئر . ومعناها : أنه يفعل الشىء مرة فمرة.

---

(١) أدليت الدلو ودليتها إذا أرسلتها فى البئر لتستقى بها . وقوله تعالى : ﴿ فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ .. (٢٢)﴾ (الأعراف) قال أبو إسحاق : دلاهما فى المعصية بأن غرهما .. وقال غيره : فدلاهما فأطمعهما . وقال الجوهرى : دلاه بغرور أى أوقعه فيما أراد من تغريره وهو من إدلاء الدلو . (لسان العرب ـ مادة : دلا)

(٢) طفق يفعل كذا : جعل يفعل وأخذ . قال الليث : طفق بمعنى علق يفعل كذا، وهو يجمع: ظل وبات . (لسان العرب ـ مادة : طفق)

(٣) خصف العريان على نفسه الشىء يخصفه : وصله وألزقه . وقوله تعالى : ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ .. (٢٢) ﴾ (الأعراف)

أى : يلزقان بعضه على بعض ليسترا به عورتيهما . (لسان العرب ـ مادة : خصف).

(٤) الدَّرْك والدرَك: أقصى قعر الشىء. والدرك: الأسفل فى جهنم أقصى قعرها، والجمع: أدراك. ودركات النار: منازل أهلها، والنار دركات، والجنة دركات والدرك إلى أسفل والدرج إلى فوق . (لسان العرب : مادة ـ درك).

و ﴿ بِغُرُورٍ .. ﴿٢٢﴾ ﴾ (الأعراف)

أى : بإغراء لكى يُوقعهما فى المخالفة ، فأظهر لهما النصح ، وأبطن لهما الغش .

ولذلك يسمى الله الشيطان « الغَرُور » فى قوله تعالى:

﴿ .. وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٥﴾ ﴾ (فاطر)

إنه الشيطان الذى يُزين للناس بعض الأمور ويحث الخلق ليطمعوا فى حدوثها ، وعندما تحدث فإن هذه الأمور لا صواب فيها ، فهى مما زيَّنه الشيطان، ولذلك فحصيلتها لا تتناسب مع الطمع فيها .

ويقال عن الرجل الذى ليس له تجربة : إنه « غِرٌّ » فيأتى بأشياء بدون تجربة ، فلا ينتفع منها ، ولا تصح .

إذن : فكل مادة « الغرور » مأخوذة من إطماع فيما لا يصح ولا يحصل ، لذلك سَمَّى الله الشيطان « الغرور » ؛ لأنه يُطمِعنا نحن البشر بأشياء لا تصح ولا تحدث .

ولهذا سوف يأتى الشيطان يوم القيامة ليتبرأ من الذين اتبعوه ويتهمهم بالبلاهة :

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ (إبراهيم)

والشيطان بذلك يتملص من الذين اتبعوه ، لأنه لم يكن يملك قوة إقناع أو قوة قهر ، فقط نادى بعضاً من الخلق ، فزاغت أبصارهم واتبعوه من فرط غبائهم ، فإرادة الشيطان هى إرادة تزيين ، لا إرادة قدرة على القهر أو الإقناع .

فقول الشيطان هذا هو[1] سخرية ممن صدقوه ، لأن السلطان إما سلطان القهر بأن تأتى لإنسان بما هو أكبر منه وتقهره على فعل شيء بالقوة ، وإما سلطان الإقناع بأن تقنع إنساناً بأن يفعل شيئاً ، والشيطان ليس له سلطان القهر والحجة.

لذلك يوجهنا الحق سبحانه إلى الاعتبار بما كان بين آدم وإبليس ، فيقول تعالى :

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٥٢٩) فى تأويل الآية ٢٢ من سورة إبراهيم : « يخبر تعالى عما خاطب به إبليس أتباعه بعدما قضى الله بين عباده ، فأدخل المؤمنين الجنات ، وأسكن الكافرين الدركات، فقام فيهم إبليس لعنه الله يومئذ خطيباً ، ليزيدهم حزناً إلى حزنهم ، وغبناً إلى غبنهم ، وحسرة إلى حسرتهم ، فقال : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ** ﴾ أى : على ألسنة رسله ، ووعدكم فى اتباعهم النجاة والسلامة ، وكان وعداً حقاً وخبراً صدقاً ، وأما أنا فوعدتكم فأخلفتكم ، كما قال تعالى : ﴿ **يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا** ﴿٢٠﴾ ﴾ (النساء) . ثم قال : ﴿ **وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ** ﴾ أى : ما كان لى دليل فيما دعوتكم إليه ﴿ **إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي** ﴾ بمجرد ذلك هذا ، وقد أقامت عليكم الرسل الحجج والأدلة الصحيحة على صدق ما جاءوكم به فخالفتموهم فصرتم إلى ما أنتم فيه ﴿ **فَلَا تَلُومُونِي** ﴾ اليوم ﴿ **وَلُومُوا أَنفُسَكُم** ﴾ فإن الذنب لكم لكونكم خالفتم الحجج واتبعتمونى بمجرد ما دعوتكم إلى الباطل ﴿ **مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ** ﴾ أى : بنافعكم ومنقذكم ومخلصكم مما أنتم فيه ﴿ **وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ** ﴾ أى : بنافعى بإنقاذى مما أنا فيه من العذاب والنكال ﴿ **إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ** ﴾ قال قتادة : أى بسبب ما أشركتمون من قبل . وقال ابن جرير : يقول إنى جحدت أن أكون شريكاً لله عز وجل وهذا الذى قاله هو الراجح » .

﴿ يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ[1] مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ (٢٧) ﴾ (الأعراف)

إياكم أن تنخدعوا بفتنة الشيطان ، لأن أمره مع أبيكم واضح ، ويجب أن تنسحب تجربته مع أبيكم عليكم ، فلا يفتننكم كما أخرج أبويكم من الجنة.

إن هذا تحذير من فتنة الشيطان حتى لا يُخرجنا من جنة التكليف ،كما فتن أبوينا فأخرجهما من جنة التجربة .

ففتنة الشيطان إنما جاءت لتخرج خلق الله عن منهج الله ، وحينما عصى إبليس ربه عز عليه ذلك ، فبعد أن كان فى قمة الطاعة صار عاصياً لأمر الله معصية أدته وأوصلته إلى الكفر ، لأنه رد الحكم على الله .

إن ذلك قد أوغر[2] صدره وأحنقه[3] ، وجعله يوغل ويسرف فى عداوته للإنسان ، لأنه عرف أن طرده ولعنه كان بسبب آدم وذريته .

***

(١) القبيل : الجماعة من الناس يكون من الثلاثة فصاعداً من قوم شتى ، كالزنج والروم والعرب، وقد يكونون من نحو واحد ، وربما كان القبيل من أب واحد كالقبيلة . ويقال لكل جمع من شئ واحد قبيل . قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ.. ﴾ (الأعراف). أى : هو ومن كان من نسله . (لسان العرب ـ مادة : قبل).

(٢) الوغر : احتراق الغيظ . ومنه قيل : فى صدره علىَّ وَغْر ، أى : ضغن وعداوة وتوقد من الغيظ . ويقال : وَغِر صدره عليه إذا امتلأ غيظاً وحقداً . وقيل : هو أن يحترق من شدة الغيظ (لسان العرب ـ مادة : وغر)

(٣) الحنق : شدة الاغتياظ . (اللسان).